مناسم قصة :

خيانة امرأة

— ٤ —

للأستاذ كامل محمود حبيب

قال لى صاحب أديب ... ومن العجب أن يقول: « وهل هناك رجل يرى زوجته مع رجل غريب على فراشه فلا تظهر آثار رجولته وغضبه إلا فى خطاب يخاطب فيه بكلام يشبه الفلسفة؟ أهذا الرجل فى الشرق أم فى الغرب؟ » هذا كلام فيه سخرية منى لاذعة وتهكم من الفلسفة مرير، فهو يسم الفلسفة بالعجز والفتور ويصورنى رجلا خوار العزيمة جبان القلب؛ ذلك لأن صاحبك لم يستطع أن يستشف ما وراء السطور من ثورة جامحة عنيفة تتبدى حيناً فى عنف وتتوارى حيناً فى أسى، ولأنك أنت يا صديق — حين كتبت القصة — جعلت الأمس دبر أذنيك فما تحدثت عن شأنى وشأنه بكلمة واحدة، وأنا قد نشرت على يديك جملة الخبر فقلت لك إننى حين أحسست بالطعنة القاسية تتغلغل فى قلبى هدرت هدير الجمل الهائج غاظه عبث طفل أحمق، فانطلقت صوب الخائن والخائنة أحتدم احتداماً جارفاً، فلم أدع الرجل يفلت من يدى إلا بعد أن صار حطاماً من انسان، ثم قذفت به إلى الشارع وهو لا يكاد يتماسك مما ناله من تورقى وبطشى. ثم اندفعت فى فورة الغضب أفتش عن الخائنة — وقد توارت عن عينى — فما راعنى إلا أن أسمع صوتاً رقيقاً ندياً ينادينى: بابا .. بابا! فالتفت فإذا ابنى الأكبر يشتد نحوى على عادته كلما أقبل من روضة الأطفال ... يشتد نحوى ليتشبث بى ويتعلق بعنقى ويغمرنى بقبلاته الحارة، وفاضت مشاعره الطاهرة الجياشة يتوثب الحب من خلالها ويتأرج الصفاء من أضعافها. آه يا لقلبى! لقد شعرت بقبلات الطفل تلقى فى جو من الهدوء والسكينة وتسكت الثورة العنيفة فى قلبى وتستلبنى من حيوانيتى العمياء، وضننت أنا بأعصاب الطفل أن تتحطم حين يرانى أهجم على أمه فى قسوة وعنف أذيقها وبال أمرها، فأمسكت حتى حين. وانطلق الطفل ينادى أخوته فتدفقت رنات صوته فى أغوار قلبى نغماً موسيقياً أخاذاً يدفعنى إلى هؤلاء الملائكة الصغار ... إلى أولادى ... إلى أحبائى. ورأيت الطفل يدور فى الحجرات يبحث عبثاً عن أخوته فى جنون وشغف. لقد أرسلتهم الخائنة مع الخادم إلى دار أختها ليخلو لها الجو هنا .. هنا فى دارى، ثم أقبل الطفل وهو يلهث من شدة الأين ومن أثر الإخفاق ... أقبل يسألنى عن أخوته فضممته إلى صدرى وانتحيت به ناحية ألقى السمع إلى حديثه التافه البرىء عسى أن أجد فيه سلوة أو عزاء، ولكن ...

وظللت أياماً أدير الرأى فى خاطرى فما أهتدى وإن بى لنهماً إلى الدم يدفعنى إلى أن أحتقر نفسى وأمتهن عقلى لأننى لم أقطع فى الأمر برأى منذ أن كان، ولأننى أصغيت إلى صوت قلبى حين رنت فى جنباته صيحات طفل برىء. ثم أخذتنى سورة الجهل لأننى فتى بدوى الطبع ريفى الشمائل، فعقدت العزم على أمر.

وجلست إلى زوجتى — بعد أيام — وقد ملأنى الغيظ بروح الشر وغمرنى الكمد بنوازع الانتقام ... جلست إليها أناقشها فى شدة وأجادلها فى عنف وفى حديثى سمات الاحتقار وعلامات الازدراء؛ قلت لها « كيف سولت لك نفسك أن تفتحى بابك لرجل غريب يقتحمه فى غيبتى؟ » قالت « ليس هذا الرجل غريباً عنى فهو من ذوى قرابتى جاء يزورنى » قلت فى تهكم « فجلستما معاً على سريرى تتجاذبان حديثاً فيه الدقة والطهر » قالت « فأنت الآن تهكم بى وتتهمنى فى شرفى » قلت « عفواً! فما كان أجدرنى بأن أذر الدار لكما تستمتعان فيها كيف شئتما، وأن أعتذر لكما فى رقة وأدب لأننى قطعت صفو الخلوة » قالت فى تنمر « ماذا تعنى؟ » قلت « أعنى أن هذه الدار دارى ولا حق لك فى أن تفعلى شيئاً إلا أن آذن لك » فضحكت فى سخرية ثم قالت « إذن تريد أن تتعبدنى. لعلك نسيت أننا هنا شريكان! » قلت « هذا كلام توحى به حماقة المرأة لتوهم نفسها بأنها شىء وما هى بشىء. إن الشركة — يا سيدتى — معناها التعاون فماذا تساهمين هنا ... فى هذه الدار ... لتستمتعى بحق الشركة » قالت فى غضب « أنت تعرض بى وأنا لا أستطيع أن أصبر على مثل هذا الكلام »

قلت «وهل يهدأ مدير الشركة بمن أصابه مس من جنون فحاول أن يستمتع بأرباح الشركة دون أن يساهم فيهـا بنصيب ؟ » قالت في تحد « هذه أفكار رجعية تافهة » قلت « ولـكنها مبادئي أنا ومبادىء الحياة . إن المرأة التي تمرح في فضل الرجل وترفل في نعمته ، ولا تحس الضيق ولا العنت ؛ لا بد لها أن تتعبد للرجل في رضاء، وتخضع لرأيه في استسلام، وتقر بسلطانه في تواضع . فإن كابرت فهي وضيعة الأصل دنيئة النبت ؛ أولا ، فهي حمقاء العقل هوجاء الرأي ؛ أولا ، فهي ساقطة تافهة ... ولا معدى لرجل فيه الرجولة عن أن يقيم عوجها — إذ ذاك — بالعصا ... العصا التي يسلس لها الحيوان الشموس وينقاد ... أو بالكلمة التي تقذف بها إلى الشارع » قالت « هذا كلام رجل دنيء الطبع ريفي العقل ريفي النزعة لم يهذبه التعليم ولا شذبته المدنية » قلت « أما أنت فقد هذبك التعليم فنزلت عن الكرامة ، وشذبتك المدنية فأقصيت عن الشرف ، وصقلتك الحضارة فعبثت بالمرض » فقالت في ثورة جامحة « أنت رجل سـافل وضيع » فثار غضبي وتأجج غيظي واندفعت إليها وأنا أزجرها بقولي « أخرسي يا ... » ثم أهويت عليها بصفعة قوية قاسـية طار لها صوابها فانقضت على تخمشني بأظافر حادة كأنهـا مخالب نمر فركلتها ركلة قوية فانحطت على الأرض وهي تعوي عواء ذئب ناله أذى شديد فما يمسك عن العواء ...

وسمع أولادي صيحات أمهم فتدافعوا نحوي ، وأفزعهم أن يروا المرأة على الأرض تتلوى مما أصابها من شـــدة الركلة ، فانطلقوا إليها يلقون بأنفسهم عليها يتمسحون بها وهم يبكون في مرارة وحسرة وقد كست وجوههم صفرة الرعب ورانت على نظراتهم علامات الحيرة والفزع ، وانصرفوا عني جميعـــاً في إهمال وخـــوف . ووقفت أنا بإزائهم حينـاً انظر في ذهول ودهشة ، ثم تسللت من الدار وأنا أحدث نفسي « يا عجباً إن في الأم معاني سامية لا يدركها إلا قلب الطفل » وخرجت من الدار أهيم على وجهي وإن كلمات أبي ترن في مسمعي حين قال « وإذا تفلسفت الفتاة في الدار جمحت بها نزوات الطيش فأنكرت وظيفتها وجحدت مكانتها، فتستحيل طمأنينة الزوج إلى فزع ما ينتهي ويحور هدوء الدار إلى ثورة ما تنقضي . إن المرأة التي تلد الفلسفة تلد الهم والأسى والضيق في نفس الرجل ... »

وعدت إلى الدار في هدأة الليل لأجلس إلى زوجتي أحدثها في صراحة « إن الحياة لن تستقر في هذه الدار إلا أن تبرحيها ، فأنا لا أستطيع أن أجد هدوء نفسي ولا راحة قلبي إن رأيتك إلى جانبي . وإذا رفضت، فستدفعني حماقتك إلى أن أكشف لأهلك عن فضيحتك. وإذ ذاك أقذف في وجهك — مرغماً — بالكلمة المحرمة . تعللي بما تشائين من التعلات ، واتهميني بما يروق لك من التهم ، ولـكن حذار أن تتحدثي لأهلك بحقيقة ما كان » قالت في انكسار « والأولاد ؟ » قلت « خذي ابني الرضيع وذري الباقين أقوم على حاجاتهم وأسهر على تربيتهم »

وانقلبت زوجتي إلى دار أبيها تصحب ابني الرضيع وحده

وغبرت أياما أعيش بين أولادي أباً وأماً ، أهيىء لهم حاجاتهم وأعد لهم رغباتهم ، لا أطمئن إلى قلب الخادم وهـــو غليظ، ولا أرضى عن يدها وهي قاسية . وأحاول جهدي أن أصرفهم عن التفكير في أمهم بالحديث والحلوى واللعب فما أستطيع ، فجرفني سيل عارم من الأسى أكتمه في قلبي وأغمض جفني على قذاه وأقضي الليل ساهراً قلقاً أقلب الفكر في جوانبه وأدير الرأي في نواحيه ، حتى نالني التعب وأصابني الارهاق، وبدا لعيني أن صغاري يتجرعون كأسا مريرة من اليتم والضياع حين افتقدوا الحنان والعطف . وأحسست بأن الحياة قد اضطربت وأن نظام الدار قد تشعث وأن مالي قد تبدد في غير رحمة . وأصبحت الدار في ناظري جحيما يتلظى أوارها فيكاد يلتهمني أنا وأحبائي دفعة واحدة ، أو سجناً ضيقاً يتقضقض عظامي وعظامهم معاً

ولشد ما حز في نفسي أن أرى ابني الأصغر — وهو في الثانية من عمره — يدور في أنحاء الدار — ساعات طوالا — يفتش عن أمه لا يهدأ ولا يستقر وهو ينادي في لهفة وشغف: ماما ... ماما ! ثم يرتد في ذلة وانكسار ، وقد آده الإخفاق وأضناه البحث. يرتد ليلقي بنفسه بين يدي وهو ينـادي بصـوت باك حزين : ماما . . ماما ! ورحت أبذل غاية الجهد لأهدهد دوافع نفسه واستفرغ وسع الطاقة لأصرفه عن نوازع قلبه ، فأعجزتني الحيلة ، فأخذت أنظر إليه في لوعة وأسى وإن العبرات لتكاد تطفر من محجري

وهـكذا توزعتني حاجات الصغار وحاجات الدار وحاجات